الْأَبْعَادُ التَّدَاوُلِيَّةُ لِلُغَةِ الحِوارِ الْقُرْآنِيِّ
قِصَّةُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ أُنْمُوذَجًا

د/سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّد آلِ يَزِيدَ*

الْمُقَدِّمَةُ:

إن قصة صاحب الجنتين قصة قصيرة وردت في القرآن في موضعين: الأول وردت فيه تفصيلا في سورة الكهف، وأما الثاني فقد وردت بالإشارة والتضمين في سورة الصافات[1]؛ومن ثمَّيتناولها هذا البحث من المنظور التداولي بوصفها حالة لِلُغَةِ الحِوار في البناء النصي للقرآن الكريم؛من أجل ضرورة رصد الأبعاد التداولية المتباينة للحوار القرآني بين صاحبين أو أخوين؛ أحدهما مؤمن صالح، والآخر ظالم طالح؛ لما يقدمه هذا الرصد من مزيد بيان وإيضاح للنص القرآني الكريم.وقد اشتملت هذا البحث على جانب تنظيري حول أصول التداولية وعناصرها، وآخر تطبيقي يتمثل في تحليل قصة صاحب الجنتين تحليلا تداوليا من خلال عدة أبعاد تداولية، تتمثل في كل من [أفعال الكلام، والاستلزام الحواري، والافتراض المسبق، والإشاريات]. وقد حرص البحثفي تحليله التداولي على أن يعود إلى ما رصده المفسرون من أفكار ذات صلة بالمفاهيم التداولية وعناصرها المختلفة. مع التركيز على بيان دور المقام في الدرس اللغوي، لأن الحوار بين الرجلين: متكلم ومخاطب، والمتلقي هو دارسو النحو عبر العصور – ونحن منهم– وخطابهما الحواري يتكوَّن من مجموعة من الأقوال ذات أبعاد من التضمين والتلميحتشكل – في الافتراضات القبلية والأقوال المضمرة– سُلَّمًا من المتضمنات المتحققة، يعمل المتلقي– أيًّا ما كان– على استنباطها؛ فالتأويل الكافي لجمل اللغات الطبيعية يصبح متعذرا إذا اكتفينا بما تحتويه الصيغ من أخبار، وأبرز مثال على ذلك عبارة:{ هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تُنَاوِلَنِي الْمِلْحَ!}؛فظاهرها يُوحي إلى استفهام، ولكن دلالتها لا تشير ألبتةَ إلى ذلك، فالمقصود بها هو الطلب. وتناول هذا كله سيكون من خلال هذا المنهج في التحليل التداولي، وهو منهج ناشئٌ بين الدراسات اللغوية المتباينة. وقد جاء البحث في مبحثين بين مقدمة وخاتمة وفهرس للمصادر والمراجع على النحو الآتي:

١– المقدمة: تناولت أهمية الموضوع، وسبب اختياره، وأهميته، ومنهجه.
٢– المبحث الأول: مفهوم التداولية.
٣– المبحث الثاني: الأبعاد التداولية للغة الحوار في قصة صاحب الجنتين.
٤– الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات التي خلص إليها البحث من خلال مبحثيه.

* د/ سعيد بن محمد آل يزيد، أُسْتَاذٌ مُسَاعِدٌ بِقِسْمِ اللُّغةِ وَالنَّحْوِ وَالصَّرْفِ- كُلِّيَّةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةُ- جَامِعَةُ أُمِّ الْقُرَى- مَكَّةُ الْمُكَرَّمَةُ.

(١) في قوله– تعالى!:﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾. سورة الصافات، آية {٥٢}.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ: مَفْهُومُ التَّدَاوُلِيَّةِ

أتناول في هذ المبحث بعض مسالك التنظير للفكر التداوليمن حيث مَفْهُومُ التداولية، ودرجاتها،وَجَوَانِبُ التَّحْلِيلِ فيها.

التَّدَاوُلِيَّةُ لُغَةً واصْطِلَاحًا:

مادة { دول} اشتق منه " الدُّولَة بالضمِّ في المال، والدَّوْلَة بالفتح في الحرب"[١]. والجمع "دُولَات، ودُوَل. وَدَالَتِ الْأَيَّامُ؛أي:دارتْ ، واللهُ يداولها بين الناس. وَتَدَاوَلَتْهُ الْأَيْدِي:أخذتْهُ هذه مرة، وهذه مرة"[٢].والتداولية اصطلاحًاعلم يتصل بالظاهرة اللسانية[٣]، وبدأت إرهاصاتُها عند [شارل ساندرس بيرس]؛وذلك عند ظهور أول مقالة له عام ١٨٧٨م، بعنوان [كيف نجعل أفكارنا واضحة؟][٤]، ثم تبلورت علميًّا على يد [أوستين][٥]؛ ونظرا "لتداخل حقولها بحقول أخرى مجاورة لها فإن لها كثيرا من الترجمات في العربية، منها التبادلية، والاتصالية، والنفعية، والذرائعية"[٦].

درجات التداولية:

وللتَّدَاوُلِيَّةِ درجاتٌ ثلاثٌ؛ الأولى هي [**نظرية الحديث**]، والمراد بهاإجراءُ اللغةِ وتحقيقُها من خلال فعلٍ كلاميٍّ فرديٍّ.ويعكف الدارسون في هذا المستوى على دراسة البصمات التي تشير إلى عنصر الذاتية في اللغة.فهي تهتم بمقاصد المتكلم؛ فقد تتعدى دلالةُ كلامه المعنى الحرفيَّ إلى المعنى المستتر؛ إذ إن " قول القائل:{ أنا عطشان} يعني: أحضر لي كوبا من الماء!، وليس من اللازم بأن يكون إخبارا له بأنه عطشان، فالمتكلم كثيرا ما يعنيأكثرَ مما تقوله كلماتُه"[٧].

(١)لسان العرب-ج١١/ص ٢٥٢.
(٢)مختار الصحاح- ص٩٠.
(٣) انظر: التداولية، سحالية عبد الحكيم- ص٨٨.
(٤) المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة- ص١٩٨.
(٥) انظر: التداولية، سحالية عبد الحكيم – ص٩٦.
(٦) دليل الناقد العربي، ميجان الرويلي، وسعد البازغي- ص١٠٢.
(٧)آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود نحلة- ص١٣.

ثمة مبادئُ عامةٌالمتكلم والمخاطب؛ لإنجاح عملية الاتصال، هذه المبادئُ مبنيةٌ على حِكَمٍ أربع: حكمة الكم، وحكمة الكيف، وحكمة العلاقة، وحكمة حِكَم الكلام. أما حكمة الكم فتعني أن تكون مساهمتُك الإخبارية في الحديث بالقدر الذي يقتضيه الهدف من هذا الحديث. وتعني حكمة الكيف أن تكون مساهمتك حقيقيةً، ولها أدلة كافية. وحكمة العلاقة أن تقدم مساهمةً دالةً لها معنى في الحديث، والحكمة الرابعة تعني التكلم بوضوح وتجنب الإبهام، وتقديم الحجة في شكل منتظم(١). فاحترام تلكم المبادئ الأربعة يجعل نتيجة الحديث ذات مقاصد ومنفعة وخدمةً لعملية التبليغ، وقوةً خطابية تسمح ببناء علاقة متينة بين المرسِل والمرسَل إليه.

أما الدرجة الثانية فهي **[نظرية قوانين الخطاب]**، وهي تدرس كيفية انتقال الدلالة من مستوى الصريح إلى مستوى التلميح؛ وذلك بالسعي وراء استنباط العمليات المتسببة في ذلك ومعرفتها،فالسامع " يسعى إلى كسر شفرة المعنى الموجود في ذهن المتكلم – وهو في حالة كمون– إلى معنى موجود بالقوة، **فالتداولية تسعى إلى صناعة معنى يكون متداولا بين المتكلم والسامع**، فالكل يتعاون ويتعاضد لإبراز المعنى الكامن في كلام ما، من خلال كل السياقات المادية والاجتماعية واللغوية"(٢)، وكذلك المنطقية والعقلية، وربط الدال بالمدلول؛ ومِنْ ثَمَّ نجد أن [شالرز موريس] يتحدث عن ثلاثة مستويات من الدراسة تُكَوِّنَ اللسانيات التداولية:" تفترض الدراسات التداولية مسبقا كلا من الدراسة التركيبية، والدلالية؛ لأن المناقشة الحصيفة لعلاقات الأدلة بمؤوليها تستلزم معرفةَ علاقات الأدلة بعضها ببعض، كذا علاقة الأدلة بالأشياء التي يحيل عليها المؤلفون"(٣)، فالتداولية عند موريس تنبعث من الأدلة الحاملة لمجموعة التراكيب اللغوية، وعلى المدلولات– وهي موجودة بالفعل– وعلى المؤولين، وكيفيات فهم السامع خطابَ المتكلم.

إن التداولية هنا تَعني علمَ مقصديةِ الخطاب؛ **فليست "علما لغويا محضا**، علما يكتفي بوصف البِنَى اللغوية وتفسيرها، ويقف عند حدودها وأشكالها، بل هي علم جديد

(١) انظر: مدخل إلى اللسانيات التداولية،الجيلالي دلاش- ص٣٣.
(٢) التداولية ، سحالية عبد الحكيم- ص٩١.
(٣) المقاربة التداولية ، فرانسوازأرمينكو، ترجمة سعيد علوش- ص٨٠.

للتواصل الإنساني، يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، وتتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي؛ ومن هنا تكون جديرة بأن تُسَمَّى **علم الاستعمال اللغوي**"[(١)].

أما الدرجة الثالثة من التداولية فهي [**نظرية أفعال الكلام**]، وترجع هذه النظرية في أول عهدها إلى الفيلسوفين التحليليين الإنجليزيين [أوستين،وتلميذه سيرل] اللذَيْن بَيَّنَا أن اللغة ليست بِنَى ودلالاتٍ فقط، بل هي –أيضا– أفعالٌ كلامية ينجزها المتكلم؛ ليؤدي بها أغراضا، فهو عمل يطمح المتكلم من خلاله إلى إحداث تغيير معين في سلوك المخاطب بالفعل أو بالكلام؛كتغيير في وضعية المتلقي، أو في منظومة معتقداته، أو في وضعه السلوكي. وينتج عن ذلك أن فهم الكلام وإدراكه يعني تشخيص مضمونه الإخباري، وتحديد غرضه التداولي؛ أي **قيمته وقوته الإنجازية**.

قد طرح [أوستين] السؤال الآتي:{كيف ننجز أفعالا حين ننطق أقوالا؟}.وفي إجابته على عن هذا التساؤل رأى أن الفعل اللغوي يحتوي على" ثلاثة أفعال تشكل كيانا واحدا، علما بأن هذه الأفعال الثلاثة يقع حدوثها في وقت واحد"(٢)؛ فهي غير منفصلة، وهي الفعل الصوتي، واللفظي، والتبليغي. وإلى جانبالفعل اللغوي هناك الفعل الخطابي، والفعل الإنجازي أو الغرضي، ويُقصد به ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة، كالوعد، والتحذير، والأمر، والنصح.وثمة الفعل التأثيري، وهو رد الفعل الذي يصدر من المتلقي أو السامع؛ سواء كان تأثيرا جسديا، أم فكريا، أم شعوريا[(٣)].**وأهم تلك الأفعال عند أوستين هو الفعل الإنجازي الذي يرتبط بمقصد المتكلم**، وعلى المتلقي بذل قصارى جهده من أجل الوصول إليه. ومثال الفعل الكلاميحسب أوستين:{لا تدخن!}؛ فإنه يتكون من فعل لغوي:لا تدخن!.فعل إنجازي: هو النهي في المثال السابق.الفعل التأثيري: ويتمثل في رد فعل المخاطب؛ بالاستجابة، أو بالرفض.وبناء على تلك الأفعال الإنجازية قسم **أوستين** الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف:

١– الأفعال اللغوية الدالة على الْحُكْمِ أو أفعال الأحكام.

٢– الأفعال اللغوية الدالة على الممارسة أو أفعال القرارات.

(١) التداولية في اللسانيات الحديثة، راضية خفيف - ص٢٤٣.
(٢)آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر- ص٤٥.
(٣)آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر- ص٤٦.

٣- الأفعال اللغوية الدالة على الوعد أو أفعال التعهد.

٤- الأفعال اللغوية الدالة على السيرة أو أفعال السلوك.

٥- الأفعال اللغوية الدالة على العرض أو أفعال الإيضاح(١).

من بعد [أوستين] جاء تلميذه [سيرل]،وأحكم البناء المنهجي لنظرية أفعال الكلام(٢)، وقد قدم لها تصنيفا جديدا بديلا يقوم على أسس منهجية، هي:الغرض الإنجازي، واتجاه المطابقة،وشرط الإخلاص.ويمكن إيجاز تلك الأصناف الخمسة لنظرية الأفعال الكلامية فيما يأتي(٣):

١- الإخباريات: الغرض الإنجازي فيها هو وصفُ المتكلم واقعةً معينة من خلال قضية، وأفعال هذا الصنف تتحمل الصدق والكذب.

٢- التوجيهيات: ويتمثل الغرض الإنجازي فيها في محاولة المتكلم توجيهَ المخاطب إلى فعل شيء معين، وشرط الإخلاص يتمثل في الرغبة الصادقة والإرادة الحقيقية، ومن أمثلته:{ النصح، والأمر، والنهي والاستفهام،والاستعطاف}.

٣- الالتزاميات:غرضها الإنجازي هو التعبير عن التزام المتكلم بفعل شيء، ومن أمثلته:{ الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والإنذار- والإنكار والوصية}.

٤- التعبيريات: وغرضها الإنجازي هو " التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوافر فيه **شرط الإخلاص**"(٤)، ويدخل فيه { التهنئة، والشكر، والاعتذار، والمواساة}، والمطلوب الإخلاص.

٥- الإيقاعيَّات [الإعلانيات]: هي التي يكون " إيقاع الفعل فيها مقارنًا لِلَفظِه في الوجود، فأنت تُوقعُ بالقول فعلا، وهي تتسع لتشمل أفعال البيع والشراء، والهبة،

(١)مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش- ص٢٥.
(٢)آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر- ص٤٧.
(٣)آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر- ص٥٠.
(٤) السابق- ص٥٠.

والوقف، والإجارة، والإبراء منَ الدَّيْنِ، والتنازل عن الحق، والزواج والطلاق، والإقرار، والدَّعْوَى، والإنكار، والقذف، والوكالة"[١].

ذلك، بالإضافة إلى نَظَرِيَّةِ الْأَفْعَالِ الْكَلَامِيَّةِ السالفة فإن ثمة جوانب أخرى في التحليل التداولي يمكن إيجازها وحصرها في الأمور الآتية:الْإِشَارِيَّاتُ، وَالِافْتِرَاضُ الْمُسبَق، وَالِاسْتِلْزَامُ الْحِوَاريُّ.

أَوَّلًا: الْإِشَارِيَّاتُ

قد اهتم العلماء قديما بالإشاريات من خلال أدوات الربط بين أجزاء الجملة وبين مجموعة الجمل، واهتمامهم ببعض الجوانب الصرفية والنحوية والدلالية، واهتم بها علماء التداولية حديثا، واعتبروا أن " النص يتألف من عدد ما من العناصر تقيم فيما بينها شبكة من العلاقات الداخلية التي تعمل على إيجاد نوع من الانسجام والتماسك بين تلك العناصر، وتسهم الروابط التركيبية والروابط الزمنية والروابط الإحالية في تحقيقها"[٢].

ومن أنواع الإشاريات[٣]:

١- الإشاريات الشخصية: وهي تمثل الضمائر الدالة على المتكلم والمخاطب، متصلة كانت أو منفصلة.

٢- الإشاريات الزمنية: وتمثلها ظروف الزمان، فإذا لم يعرف الزمن التبس الأمر على المتلقين، وقد تدل العناصر الإشارية على الزمان الكوني والنحوي.

٣- الإشاريات المكانية: وتمثلها ظروف المكان، ويعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على أي مكان آخرَ معروفٍ للخطاب أو للمخاطب والسامع.

(١)آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر- ص٩٨.
(٢) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة- ص٩٤.
(٣)آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر– ص١٧.

ثَانِيًا: الِافْتِرَاضُ الْمُسْبَقُ:

اللغة مجموعة من رموز وإحالات مرجعية ينطلق المتخاطبون من معطيات أساسية معترف بها، لا يصرح بها المتكلمون، وإنما تشكل خلفية التبليغ الأساسية، فقولنا: كَيْفَ حَالُ زَوْجَتِكَ وَأَوْلَادِكَ؟ يفترض سابقًا أن يكون المسؤولُله زوجةٌ وأبناءٌ، وأن السائلَ له علاقةٌ حميمةٌ مع المسؤول(١).

ثَالِثًا: الِاسْتِلْزَامُ الْحِوَارِيُّ:

إنه من أهم جوانب البحث التداولي وتحليله؛ لأنه ألصقها بطبيعة البحث فيه، وأبعدها عن الالتباس بمجالات البحث الدلالي(٢). قد اكتشف {جرايس}أن الناس في حِوَاراتهم قد يقصدون فعلا ما يقولون، وقد يتجاوز قصدهم أكثر مما يقولون، وقد يكون ما يقولونه نقيضا لما يقصدون؛ فنشأت بذلك فكرة الاستلزام الحِوَاري(٣)، وقد وضع مبدأ التعاون بين المرسِلِ والمرسَلِ إليه عن طريق:الكم، والكيف، والمناسبة، والطريقة(٤).

هذا، وقد أضاف مسعود صحراوي في بحثه عن التداولية عند العرب عنصرين آخرين إلى جانب عناصر البحث التداولي السالفة، هما الملائمة والقصدية.

أما الملائمة فهي " مفهوم تداوليٌّ تأسس على يد كلٍّ من [سبربيرو، ولسن]، وتقوم الملائمة بتفسير الظواهر الكلامية وسماتها البنيوية في طبقاتها المقامية، وتعد في الوقت نفسه نظرية إدراكية؛ لأنها تنتمي إلى العلوم المعرفية الإدراكية"(٥).

وأما القصدية فقد " اعتمدها أوستن، وأدخلها في تحليلاته للظواهر اللغوية، واعتبر أن كل فعل كلامي يقوم على مبدأ القصدية. وتهتم القصدية بالربط بين التراكيب اللغوية، ومراعاة غرض المتكلم والمقصد العام من الخطاب في إطار مفاهيمي مستوف للأبعاد التداولية للظاهرة اللغوية"(٦).

---

(١)مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش- ص٣٤.
(٢)مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش- ص٣٤.
(٣) آفاق جديدة – ص٣٣.
(٤) علم الدلالة السماتيكية، شاهر الحسن- ص١٦٩.
(٥) التداولية عند علماء العرب، مسعود صحراوي- ص٣٦.
(٦) السابق- ص١٠.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

الْأَبْعَادُ التَّدَاوُلِيَّةُ لِلُغَةِ الحِوارِ فِي قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ

وردت قِصَّةُ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِفِي الكتاب العزيز في سورة [الكهف] تفصيلا في ثَلَاثَ عشْرَةَ آيةً قال الله- تعالى!- فيها:﴿وَاضْرِبْ لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَالأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهرًا ﴿٣٣﴾وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآأَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴿٣٥﴾وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنتُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴿ ٣٧﴾ لَّكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلاأُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللَّهُ لاَقُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْتَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴿٣٩﴾فعسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآأَنْفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا﴿٤٢﴾وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴿٤٤﴾[1].

بدءا يمكن أن نُعنون لهذه القصة أو لهذا الحوار بِعنوان يكمن فيه المغزى من سردها، ومن ضرب الله لقريش مثلا بها، مفاده [المغتر بماله، والمستعلي بإيمانه]؛ قصة صاحبين أو أخوين جسدها ذلكم الحوار الذي دار بينهما؛ مبينا حيثيات منهج كل منهما في حياته، ونهاية هاتين الحياتين في الدنيا؛ إذ كانت عاقبة "صاحب الحال المونقة تَبَابا وخسارة ، وكانت عاقبة الآخر نجاحا؛ ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء،وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسُنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب؛ فيكون معرضا للصلاح والنجاح"[2]. قد نزلت الآيات في "أخوين من

(١) سورة الكهف، الآيات {٣٢: ٤٤}.
(٢)تفسير التحرير والتنوير-ج١٥/ص٣١٥.

أهل مكّة من بني مخزوم:أحدهما مؤمن، وهو أبو سلمةعبدالله بن عبدالأسد بن عبد ياليل،كان زوجاً مّسلمة قبل النبّي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!- والآخر كافر، وهو الأسود بن عبدالأسد بن عبد ياليل"[1]. بيد أن أبا حيان يرجح كونهما صاحبين وليس بأخوين بقوله:" ويظهرمنقوله:﴿فَقَالَ لَصَاحِبِهِ﴾أنه ليس أخاه.. واستدل على أنه لم يكن أخاه بقوله: :﴿وَأَعَزُّنَفَرًا﴾؛إذ لو كان أخاه لكان نفره وعشيرته نفرَ أخيه وعشيرتَه"[2].

أَفْعَالُ الْكَلَامِ فِي قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ

أفعال الكلام حسب تصنيف [سيرل] السالف هي :الإخباريات، والتوجيهيات، والالتزاميات، والتعبيريات، والإيقاعيَّات [الإعلانيات]. وقد تعددت أصناف أفعال الكلام في قصة صاحب الجنتين، واختلفت قوتها الإنجازية حسب المواقف والأحداث على النحو الآتي:

أولا: الإخباريات:

هي الأفعال التي " تصف وقائعَ وأحداثا في العالم الخارجي. أما غرضها الإنجازي فهو نقل الوقائع نقلا أمينا، فإذا تحققت الأمانة في النقل فقد تحقق شرط الإخلاص، وأنجزت الأفعال إنجازا ناجحا تاما"[3]. ذلك، وقد عرضت قصة صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِأحداثا كثيرة، ومواقف متباينة، يمكننا استحضار نماذج فقط للأفعال الإخبارية على سبيل التمثيل لا الحصر فيما يأتي:

الفعل الكلامي الإخباري	الغرض الإنجازي
-جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَاجَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ -وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ -وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا	-نقل خبر إنعام الله على أحد الأخوين بجنتين - نقل خبر كون النخلتين محفوفتين بنخل - نقل خبر أن بين الجنتين زرعا
-وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ -فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَيُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا	-نقل خبر الإنتاج الغزير للجنتين من الثمار -نقل خبر تكبر صاحب الجنتين
- وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ	نقل خبر كون صاحب الجنتين ظالما
- لَّكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا	نقل خبر توحيد الأخ الفقير لله
- وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ	نقل خبر هلاك جنة الكافر

(١)الكشف والبيان(تفسير الثعلبي)-ج٦/ص١٦٩* البدء والتاريخ-ج٣/ص١٢٩.
(٢)تفسير البحر المحيط-ج٦/ص٨٤٦، ٨٤٧.
(٣) آفاق جديدة- ص١٠٣.

نقلت الأفعال الكلامية الإخبارية السالفة أحداثا وقعت في قصة صاحب الجنتين، وأُخْبِرَ عنها كما حدثت تماما؛ لأن المُخْبِرَ هو الله – تعالى!– الذي تمت كلمته صدقا وعدلا[١]. فمعنى الإخبار في قوله– تعالى!:﴿جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛أي " جعلنا له بساتين من كروم،[وحففناهما بنخل]يقول:وأطفناهذين البساتين بنخل، وقوله:[وجعلنا بينهما زرعا]؛ أي: وجعلنا وسط هذين البساتين زرعا"[٢].وهذا " إعلام أن عمارتهما كاملة"[٣].

أما قوله– تعالى!:﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ فقرئ [ثُمُر]، جمع ثمار، كما يجمع الكتاب كتبا، والحمار حمرا. أما [ثَمَر]؛بفتح الثاء والميم فبمعنى جمع الثمرة ؛كما تجمع الخشَبَة خَشَبًا.والمقصود بـ [ثَمَر] على الأرجح الذهب والْوَرِقُ، وكأن "الذهب والورق قيل له : ثمر؛على التفاؤل"[٤].وقال آخرون:"بل عني به المال الكثير من صنوف الأموال"[٥]. ويرجح ابن جرير المعنى في هذه القراءة، وترجيحه بين معنى القراءتين، لا بين القراءتين نَفْسَيْهِمَا، فيقول:" وأولى القراءات في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأ:[وكان له ثُمُر]،بضم الثاء والميم؛ لإجماع الحجة من القراءعليه..ومعنى الكلام:وفجرنا خلالهما نهرا،وكان له منهما ثمر، بمعنى من جنتيه أنواع من الثمار"[٦].وتنكير [ثمر] يفيد بأنه ثمر "عظيم كما يفيده التنكير؛ أي: قداستكملت جنتاه ثمارهما"[٧].

وأخبر الله بقوله– تعالى!:﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾،عن كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله– تعالى!– فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه؛ لكونه كفورا لنعم ربه، مكذبًا بلقائه،متمنِّيًاعلى الله. كما أخبرناالله بخلوص توحيد الرجل المؤمن لربه بقوله– تعالى!:﴿ لَّكِنَّهُ وَاللَّهُ رَبِّى وَلاَأُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا﴾. ولسنا بحاجة إلى القول

(١) في الروايات والقصص التي من خيال البشر يكون الناقل فيها هو [السَّارِد].
(٢)تفسير الطبري- ج١٥/ص٢٤٤.
(٣)زاد المسير- ج٥/ص١٣٩.
(٤)المخصص-ج٣/ص١٥٢.
(٥)تفسير الطبري-ج١٥/ص٢٤٥.
(٦)السابق-ج١٥/ص٢٤٦.
(٧)تفسير السعدي-ص٤٧٦.

بأن الأحداث والوقائع نُقِلتْ نقلا لا يمكن وصفه إلا بالصدق والعدل؛ لأن المخبر هو الله– جَلَّ جَلالُهُ!.

ثانيًا: التوجيهيات

جاءت الأفعال الكلامية التوجيهية في قِصَّةِ صَاحِبِ الْجَنَّتَيْنِ بادية في أساليب إنشائية [النصح، والاستفهام} التي تسللت إلى الخطاب والتحاور وجها لوجه، فقوله:[وَهُوَ يُحاوِرُهُ]؛ أي يناظره،قد تكرر في القصة مرتين: مرة على لسان الكفور لنعم ربه، المكذب بلقائه، المتمني على الله الأماني، المستعلي بماله وولده وخدمه، ومرة أخرى على لسان الطائع المستقوي بإيمانه المستغني بربه عمن سواه.

هذا، وقد تنوعت القوةالإنجازية للنصح والاستفهام بين الإنكار والتوبيخ واللين في الدعوة، أما الاستفهام ففي قوله– تعالى!:﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾؛ فقول الصالح للطالح:[أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ..] أفاد في قوته الإنجازية الاستنكار والتوبيخ؛ لكونه قد كفر، وذلك بتشكيكه– إلى حد اليقين– في البعث.

وأما قوله– تعالى!:﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَاللَّهُ لاَقُوَّةَ إِلاَّبِاللَّهِ﴾ وما يتلوه من آيات، ففيه يقوم الرجل المؤمن بدور الداعية الذي يقدم للمدعو كل ما هو سبب هداية وإرشاد وتثبيت. والفعلان [دخلتَ– قلتَ] قد تمثلت قوتهما الإنجازيةفي النصح والإرشاد والوعظ بقول ليِّنٍ سديد. يقول المؤمن الذي لامال له ولاعشيرة لصاحبه المُغْتَرِّ: وهلا إذ دخلت بستانك فأعجبك ما رأيت منه قلت:ماشاءالله، لاقوة على مانحاول من طاعته إلا به.

من أجل ذلك النصح والوعظ كان ندم صاحب الجنتين لما ضاع منه كل شيء، وفاته، تذكر موعظة أخيه، وقال:يا ليتني لم أشرك بربي أحدا؛يعني "أنه تذكر موعظة أخيه المؤمن"[(١)].

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل-ج٤/ص٥٨.

ثالِثًا: الالتزاميات

تمثَّل الفعل الكلامي الالتزامي في قصة صاحب الجنتين في { الوعد، والوعيد، والترغيب والترهيب}؛ ففي قوله- تعالى!:﴿فعسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا*أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَاغَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ يبدو الفعل الكلامي الالتزامي المتمثل في [وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا-يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا] وما يحمله الفعلان من قوة إنجازية تفيد الوعيد والترهيب وتخويفه من هلاك جنته، وأن يصير ماؤه غائرا.

وقد تحقق الفعل الالتزامي **بالترغيب**- أيضا- وذلك في قوله-عزَّ وجلَّ!:﴿فعسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾،قد رجا ربه بيقين؛ فحقق له أمانيَه.يقول- تعالى ذكره!- مخبرا عن قيل المؤمن الموقن بالمعاد إلى الله للكافر المرتاب في قيام الساعة: إنترنِ- أيها الرجل-أنا أقل منك مالا وولدا في الدنيا، فعسى ربي أن يرزقني خيرا من بستان كهذا، ويرسل على جنتك التي قلت لها:[ما أظن أن تبيد هذه أبدا]عذابا من السماء ترمى به رميا، وتقذف؛ فتصبح جنتك هذه-أيها الرجل-أرضا جُرُزًا ملساءَ،لاشيء فيها، قد ذهب كل ما فيها من غرس ونبت، وعادت خرابا يبابا، زلقا لايثبت في أرضها قدم لإملاسها ودروس ما كان نابتا فيها. أو يصبح ماؤها غائرا ؛ فلا تلحقه الرشاء ولا الدِّلاء، ولن تطيق أن تدرك الماء الذي كان في جنتك بعد غوره بطلبك إياه.

هذا، وقد تحقق **عنصر الإخلاص** الذي اشترطه **[سيرل]** في هذه الفعل التعبيري المتمثل في الترغيب، فقد استجاب الله لكل التحذيرات التي جاءت على لسان المؤمن من زوال الجنة، وهلكة المال، وغور الماء، وفوت النعيم.

رابعًا: التعبيريات:

كشفت الأفعال الكلامية التعبيرية عن الحالة النفسية لصاحب الجنتين؛ إذ أظهرت جانبا من **التوهم والشك في ثوابت الإيمان والاضطراب النفسي**، وجانبا آخر من **الندم والحسرة**، ففي قوله- تعالى!:﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ قال أهل المعاني: "راقه حسنها،

وغرته زهرتها؛ **فتوهم** أنها لا تفنى أبدا، وأنكر البعث"[1]. وجاءت نتيجة ذلك التوهم في قوله- تعالى!:﴿وَمَآأَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾؛ تتجلى حالته النفسية الموغلة في الشك؛ فقد تكرر الفعل [أظن] مرتين بجانب أسلوب الشك المتمثل في [وَلَئِنرُّدِدتُّ].

هذا، وقد تكرر في الحوارقوله- تعالى!:﴿خَيْرًامِّنْ﴾ مرتين: مرة على لسان صاحب الجنتين بقوله:﴿لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، وأخرى على لسان صاحبه الفقير:﴿أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾، فالمرة الأولى يحكم صاحب الجنتين- وقد كفر- بأن له في الآخرة عند الله خيرا من جنته " تطمعا وتمنياعلى الله، وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنهما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله، وأنّ معه هذا الاستحقاق أينما توجه"[2].وأما الثانية فعلى لسان صاحبه الفقير، ويجوز "أن يكون أراد في الدنيا، وأن يكون أراد في الآخرة"[3].

ومن الأفعال التعبيرية التي تظهر **حالته النفسية بالندم**على ما قدم- ولات ساعة مندم- قوله- تعالى!:﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآأَنْفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا﴾، فقد جمع بين الإشارة والقول الدالين على قمة الحسرة والندامة وأثرهما الأليم في فؤاده؛ الإشارة بتقليب اليد، فقد فرغت وأفلست من بعد عزٍّ وكثرة أملاك؛ ولأنه" في معنى الندم عدّى تعديته بـ [على]"[4].

وأما بالقول ففي [يا ليتني]؛ فأصبح هذا الكافر صاحب هاتين الجنتين يقلب كفيه ظهر البطن؛ تلهفا وأسفاعلى ذهاب نفقته التي أنفق في جنته، وهي خاويةٌ على عروشها خاليةٌ على نباتها وبيوتها. يتمنى هذا الكافر بعدما أصيبب جنته، وزالت عنه دنياه، وانفرد بعمله- وَدَّ أنه لم يكن كفر بالله، ولاأشرك به شيئا.

(١)تفسير البغوي-ج٣/ص١٦٢.
(٢)الكشاف-ج٢/ص٦٧٤.
(٣)معاني القرآن-ج٤/ص٢٤٤.
(٤)الكشاف-ج٢/ص٦٧٦.

خامسًا: [الإعلانيات]:

تمثلت الإعلانيات أو الإيقاعيات في تلك القصة في **[الإقرار]**،فقد تحقق فعله الإيقاعي فيقوله– تعالى!:﴿**أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا**﴾؛ ففيه إقرارٌ بكونه منعَّمًا مُترفا يرفل في الدمقس وفي الحرير، بيد أنه نسي المنعم؛ فنسبها إلى نفسه كما فعل قارون ومن على شاكلته، ومن" العجب أن أهل البدع يستدلون على كونهم أهل الحق بكثرتهم، وكثرة أموالهم، وجاههم، وظهورهم"(١).

وفي قوله– تعالى!:﴿ **لكن هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا**﴾؛ إقرار بتوحيده وربوبيته وألوهيته وتنزيهه وأخذ العهد على نفسه بألا يشرك بربه أحدا، وتكرار لفظ [رَبِّي] بجانب لفظ الجلالة [الله] له ما له من امتلاء قلبه بحب الله الذي يَغذُوه بنعمه.

ثانيا: الْإِشَارِيَّاتُ

تتمثل في إشاريات شخصية؛ كأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر، وإشاريات زمنية ومكانية، وإشاريات اجتماعية، وإشاريات خطابية.

١– الإشاريات الشخصية

نوع الضمير	موضع الإشارة	مرجع الضمير
الإشارة بالضمائر المنفصلة	- أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا - أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا	أنا: ضمير متكلم. المرجع: صاحب الجنتين أنا: ضمير متكلم. المرجع: الصاحب المؤمن الفقير
الإشارة بالضمائر المتصلة	- جَعَلْنَالِأَحَدِهِمَا - وَفَجَّرْنَاخِلَالَهُمَا - مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ - وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً -وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى -لَأَجِدَنَّ خَيْرًامِّنْهَا - لَّكِنَّ - وَلَاأُشْرِكُ بِرَبِّي	-نا: المشار إليه الذات الإلهية - نا: المشار إليه الذات الإلهية - أنا: المشار إليهصاحب الجنتين - أنا: المشار إليه صاحب الجنتين - أنا:المشار إليه صاحب الجنتين - أنا: أنا: المشار إليه صاحب الجنتين - لكن أنا: المشار إليه الصاحب المؤمن الفقير - أنا: المشار إليه الصاحب المؤمن الفقير
الإشارة بالضمائر المستترة	- وَاضْرِبْ _ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي - وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ- - قُلْتَ مَاشَاءَاللَّهُ _ إِنْ تَرَنِ _ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا - يالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى	- أنت: المشار إليه هو النبي- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!. - أنت: المشار إليه هو صاحب الجنتين. - دخلت أنت: المشار إليه هو صاحب الجنتين. - دخلت أنت: المشار إليه هو صاحب الجنتين. - أنت: المشار إليه هو صاحب الجنتين. - أنت: المشار إليه هو صاحب الجنتين. - لَمْأُشْرِكْأنا: المشار إليه هو صاحب الجنتين.

(١)المناظرة في القرآن- ص٥٧.

بالضمائر غير الغائبة قد أُشير إلى الذات الإلهية مرتين بضمير الفاعلين [نا] الدال على العظمة، وإلى النبي– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!– مرة واحدة،وأشير إلى الصاحب المؤمن ثلاث مرات، أما صاحب الجنتين فقد أشير إليه إحدَى عشْرةَ مرة، وبهذا يتضح أن النسبة العددية الكبرى للمشار إليه جاءت في شأن صاحب الجنتين، ولا غرو في ذلك؛ إذ إنه محور القصة ومدارها الذي تدور حوله الأحداث.

٢– الإشاريات الزمنية

قد تمثلت الإشاريات الزمنية في ظروف الزمان، مثل:﴿وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وقوله:﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾،وقوله:﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾، فالإشاريات الزمنية السالفة هي [الساعة– إذ– هنالك]؛ فالساعة تعني القيامة بما فيها من بعث وحشر وحساب،و[إذ] ظرف زمان لما مضى؛ ليعود به إلى الدخول العاتي المنتفخ، وقت أن قال ما قال، ثم تُخْتَمُ القصة بما كان منه موضع شك، فأشار إليه باسم الإشارة للبعيد [هنالك]، والمُشار إليه به هو القيامة بعرصاتها"[١]. يعني أن من أحل به نقمته يوم القيامة فلا ناصر له يومئذ، فالله للمنيبين في العاجل والآجل خير ثوابا وخير عاقبة في الآجل إذا صار إليه المطيع له، العامل بما أمره الله، والمنتهى عما نهاه الله عنه.لا جرم أن تلك الإشاريات الزمنية قد ساهمت في رسم الملامح الأساسية لقصة صاحب الجنتين.

٣– الإشاريات المكانية

تدور الإشاريات المكانية في قصة صاحب الجنتين في مكان البستانين المحاطَيْنِ بالنخل، فقال:﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾، فخلالهما: ظرف مكان[٢]، والإخبار بإحاطة النخل لهذا البستان " مما يؤثره الدهاقين في كرومهم؛ أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المثمرة"[٣]، بيد أن الله قد " أبهم تعالى مكان الجنتين؛ إذ لايتعلق بتعيينه كبير فائدة"[٤].وقيل إن مكان الجنتين بقرية [تِنِّيس] بمصر،وكانت "تربتها من أطيب الترب، وبها تحاك الثياب النفيسة

(١)تفسير البغوي-ج٣/ص١٦٣.
(٢)التبيان في إعراب القرآن-ج٢/ص٨٤٧.
(٣)الكشاف-ج٢/ص٦٧٣.
(٤)تفسير البحر المحيط/ج٦/ص١١٨.

التي ليس لها نظير في الدنيا،وقد قيل:إن الجنتين اللتين أخبر الله– تعالى!– عنهما في سورة الكهف..كانتا بتنيس"[١].

٤– الإشاريات الخطابية

أما إشاريات الخطاب فتتمثلفي العبارات التي تذكر في النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم، كما في– تعالى!:﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَمَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، افتخارٌ وانتِفَاشٌ، انتهى بذلٌ وعجزٍ وانتكاس في قوله– تعالى!:﴿يالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا* وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، لم تكن له عشيرة تنصره، ولا جنود تحميه.حقيق على من عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقائص التي تعتورها؛فإن الفضل مقسوم بين البشر، وليس يكمل الواحد منهم إلابفضائل غيره. وكل من كانت فضيلته عندغيره فواجب عليه أن لايعجب بنفسه. وكذلك الافتخار؛ فإن الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عنا، ومن باهي بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه. وكيف يملك ماهو معرض للآفات والزوال في كل ساعة وفي كل لحظة، ولسنا على ثقة منه في شيء من الأوقات، وأصح الأمثال وأصدقها فيه ما قاله الله–عزوجل!:﴿وَاضرِب لَهُم مَثَلًا﴾. وأما المفتخربنسبه فأكثر مايدعيه إذا كان صادقا أن أباه كان فاضلا، فلو حضر ذلك الفاضل وقال:[إن الفضل الذي تدَّعيه لي أنا مستبدٌّ به دونك]، فما الذي عندك منه مما ليس عند غيرك؟ لأفحمه وأسكته.

هذا، وقد عاد صاحب الجنتين بِأَخَرَةٍ من أمره، وتمنى ما قد قرره صاحبه الفقير؛ إذ قد قرر الفقير ألا يشرك بالله أحدا بقوله– تعالى!:﴿لَّكِنَّهُ وَاللَّهُ رَبِّى وَلاَأُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا﴾، أما صاحب الجنتين تمناها مجرد أمنية– وليس الإيمان بالتمني– فقال:﴿لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا﴾.

٥– الإشاريات الاجتماعية

أما الإشاريات الاجتماعية فتتمثل فيقوله– تعالى!:﴿قَالَ لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، وفي قوله– تعالى!:﴿قَالَ لَهُ صَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾، فقد وردت لفظة {صاحب} مرتين، والمقصود بالصاحب في الآيتين "المسلم المجعول مثل الفقراء المؤمنين"[٢]؛ فقد أشير إلى مكانتهما الاجتماعية، فهما صاحبان، والعلاقة الاجتماعية بينهما تسمح لهما بمثل هذه

(١)صبح الأعشى في صناعة الإنشا-ج٣/ص٤٣٩*الروض المعطار في خبر الأقطار- ص١٣٧.
(٢)نظم الدرر-ج٤/ص٤٦٧.

المحاورة أو المناظرة الجادة دونما تجاوز في الخطاب. بل ساد الحوار بينهما روح الإقناع بالدليل. ومعلوم أن لفظ الصاحب في اللغة "يتناول من صحب غيره ،ليس فيه دلالة بمجرد هذا اللفظ على أنه وليه أو عدوه أو مؤمن أو كافر،إلا لِمَا يقترنبه"(١).

ثالثا: الاستلزام الحواري:

بالاستعانة بالقيود السياقية والمقتضيات المقامية والمبادي الخطابية ينجح في استخلاص اللوازم التي تخدم إدراك الفائدة الإخبارية والغرض التواصلي من القول، فقوله- تعالى!:﴿وَاضْرِبْ لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾، لا يُفهم إلا من خلال انضمام ضميمة أخرى في السياق وهي سبب ضرب المثل؛ أي سبب النزول، فيروى أن" اليهود قالوا: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن الروح، وعن رجلين! فأنزل الله-عز وجل!-هذا، وجعله مثلا لجميع الناس"(٢).

أما قوله- تعالى!:﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ فلن يفهم معنى الظلم هنا إلا إذا ضممنا إليه ما جاء من بعده من آيات ومعان؛ حتى لا يُفسَّر الظلمُ بالشرك، كما في سورة لقمان:﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٣)،أما ظلمه نفسه هنا يعني" كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة ،ونسيانه المعاد إلى الله- تعالى!-فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه "(٤)، وهو "أفحش الظلم ؛ إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته ؛ لطول أمله ،واستيلاء الحرص عليه ، وتمادي غفلته ، واغتراره بالمهلة، واطراحه النظر في عواقب أمثاله. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه"(٥).فكل "من كفر فقد ظلم نفسه؛ لأنه يولجها النار"(٦).أما الظلم المذكور في:﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِّنْهُ شَيْئًا﴾ فالمقصود به " لم تنقص"(٧).

ومن المستلزم الحواري هذا الإشكال الذي يُفهم من قوله:﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾؛ إذ كيف ينكر البعث، ويقول:﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّىل أَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، ويحكم أنه يُعْطَي خيرا منهما؟ فالجواب أن المعنى "ولئن رددت إلى ربي-على

(١)منهاج السنة النبوية-ج٨/ص٤٧٠.
(٢)معاني القرآن-ج٤/ص٢٣٨.
(٣) سورة لقمان، جزء من الآية {١٣}.
(٤) تفسير الطبري-ج١٥/ ص٢٤٦.
(٥)الكشاف-ج٢/ص٦٧٤.
(٦)معاني القرآن- ج٤-ص٢٤١.
(٧)الجواهر الحسان في تفسير القرآن{تفسير الثعالبي}-ج٦/ص١٧٠.

قولك- وقدأعطاني في الدنيا، فكما أعطاني في الدنيا فهو يعطيني في الآخرة"(١). فهو يُجارِي صاحبه الفقير في قوله، فهو من قبيل مجاراة الخصم.

ومن المعاني الضمنية الدالة على عدم توفيق صاحب الجنتين بالتوبة والإنابة إلى الله كما فعل أصحاب الجنة في قوله- تعالى!:﴿ **قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾(٢)؛ فقد اعترفواجميعا بالخطيئة بأنهم طَغَوْا وَبَغَوا، فتابوا؛ فتاب الله عليهم، وأبدلهم بجنتهم خيرا منها. أما صاحب الجنتين هنا فيُفْهَمُ منقوله- تعالى!:﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَاكَانَ مُنْتَصِرًا*هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أنه لم يَتُبْ إلى ربِّهِ؛ فكان من أصحاب البوار، وهكذا يختار المرء لنفسه منزله بعمله، وما ربك بظلام للعبيد.

ومن المستلزمات الحوارية-أيضا- قوله- تعالى! :﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾؛ أي أن الجنتين خالصتان للزرع والثمار، وليست متصلة بالبيوت والديار، فقد " أخبر أنه ليس بينهما إلاعمران"(٣)، أو كما ذكر البغوي:" لم يكن بين الجنتين موضع خراب"(٤).

أما في قوله- تعالى! :﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾؛ فقد " **ألزمه الكفربقوله**"(٥).وبقوله- تعالى!:﴿لَّكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلاَأُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا﴾، قد دلَّهذاعلىأن صاحب الجنتين كان مشركا. ويُفهمُ الفقر المدقع الذي يحيق بالرجل المؤمن من قوله – تعالى!:﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا﴾؛ أقلَّ:بالنصب فهو مفعول ثان لـ[ترى]، وقد "دخلت[أنا]للتوكيد"؛أي أن الضمير [أنا] بعد المفعول الأول لـ [ترى] يفيد توكيد فقر المؤمن(٦).كما يستلزم من قوله- تعالى! :﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ الفهم بأن ثمرهما دائم لكون شربهما غزيرا؛ لأنه من نهر متفجر سيال سارح؛ فيكون" ثمرها وزرعها بدوام الماء فيهما أو في وأروى، وهذه غاية الصفات فيما يجدى،ويغل"(٧). فلا يكاد المرء

(١)معاني القرآن- ج٤/ ص٢٤١.
(٢) سورة القلم، الآية {٢٩}.
(٣)معاني القرآن-ج٤/ص٢٣٨.
(٤)تفسير البغوي- ج٣/ص١٦١.
(٥)معاني القرآن-ج٤/ص٢٤٢.
(٦)تفسيرابن زمنين-ج٣/ص٦٤.
(٧)النكت والعيون تفسيرالماوردي-ج٣/ص٣٠٥.

يتخيل أجلَّ منها.كما يستلزم من قوله- تعالى!:﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا﴾ الندم والحسرة؛ لأن هذا يُوصف به النادم عادة.

رابعا: الافْتِرَاضُ الْمُسْبَقُ:

في قوله- تعالى!:﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ افتراض مسبق مضمونه أن المتلقي أو السامع المتمثل في صاحبه الفقير يعلم جيدا وضع الجنتين من حسن الهيئة وشدة حمل الثمار، ومافيها من الأنهار والأشجار والأزهار والثمار، فهي " أجمل الجنان وأجداها نفعا؛ لثمر أعاليها، وزرع أسافلها"[١].فقد جعلها الله "أرضا جامعة للأقوات والفواكه ،ووصف العمارة بأنها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها ، ويفصل بينها ، مع الشكل الحسن والترتيب الأنيق، ونعتهما بوفاء الثمار، وتمام الأكل من غير نقص، ثم بماء وهو أصل الخير ومادّته[٢].

فلا بد أن يكون المتلقي له دراية بما يدور حوله الحديث وهو الجنتان اللتين تكرر ذكرهما في الحوار بالاسم الظاهر خمس مرات؛ مرتين بالمثنى، وثلاثا بالإفراد.

كما أن ثمة افتراضا مسبقا أن المخاطب يعلم أن المراد بذكر الجنة بالإفراد هو الجنتان، ولما وحَّد الخبر أول مرة في:﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ﴾ كان مستساغا أن يكون ذكرهما بالإفراد بالافتراض المسبق الذي علمه المتلقي من قبل. فالمعنى – كما ذكر الثعلبي " آتت كل واحدة من الجنتين؛فلذلك لم يقل: آتتا"[٣].فهنا " حمل على اللفظ؛لأن [كلتا] لفظه لفظ مفرد، ولو قيل:[أتتا]على المعنى لجاز "[٤].

وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١)النكت والعيون تفسير الماوردي-ج٣/ص٣٠٥.
(٢)الكشاف-ج٢/ص٦٧٤.
(٣)تفسير الثعلبي-ج٦/ص١٦٩.
(٤)التفسير الكبير-ج٢١/ص١٠٦*التبيان في إعراب القرآن-ج٢/ص٨٤٧.

الْخَاتِمَةُ

مِمَّا قَدْ سَلَفَ يُمْكِنُ إِقْرَارُ بَعْضِ النَّتَائِجِ وَالتَّوْصِيَاتِ:

أولا: اهتمام الفكر التداولي بدراسة اللغة من وجهة نظر معرفية واجتماعية وثقافية.

ثانيا: تُعنَى التداوليةُ بالاستعمال اللغويبتوظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي.

ثالثا: يُعَدُّ الفكر التداوليُّ وصلة التقاء بين العلوم ذات الصلة باللغة.

رابعًا: يُفلح الفكر التداولي في بعض جوانب التحليل، ويخفق في جوانب أخرى مهمة، وبخاصة في تحليله النصَّ القرآني.

ثَبَتُ الْمَصَادِرِ والْمَرَاجِعِ

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر والمراجع:

١- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة- دار المعرفة الجامعية- مصر- ط١- ٢٠٠٢م.

٢- البدء والتاريخ، وهو المطهر بن طاهر المقدسي {ت ٥٠٧هـ}- مكتبة الثقافة الدينية- بورسعيد.

٣- التبيان في إعراب القرآن،أبو البقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري {ت٦١٦هـ}- عيسى البابي الحلبي وشركاه - تح/علي محمد البجاوي.

٤- التداولية عند علماء العرب، مسعود صحراوي- بيروت- دار الطليعة - بيروت- ط١- ٢٠٠٥م.

٥- التداولية في اللسانيات الحديثة، راضية خفيف- مجلة اللسانيات واللغة العربية - جامعة باجي مختار-عنابة- الجزائر- ٢٠٠٦م- عدد٢.

٦- التداولية، سحالية عبد الحكيم- مجلة مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري- قسم الأدب العرب-جامعة بسكرة- العدد الخامس/ مارس ٢٠٠٩م.

٧- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي {ت ٧٤٥هـ}- دارالكتب العلمية- لبنان/ بيروت- ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م-الطبعة الأولى - تح/الشيخ عادل أحمد عبدالموجود ، الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق/د.زكرياعبدالمجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل.

٨- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن{ت ٧٢٥هـ}- دارالفكر- بيروت / لبنان- ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٩- تفسير القرآن العزيز، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي زمنين {ت ٣٩٩هـ} – الفاروق الحديثة- مصر/ القاهرة- ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م-الطبعة الأولى- تح/ أبو عبدالله حسين بن عكاشة- محمد بن مصطفى الكنز.

١٠- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي{ت٦٠٤ هـ}- دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م-الطبعة الأولى.

١١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي {ت ١٣٧٦هـ}- مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م-تح/ابن عثيمين.

١٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر{ت٣١٠ هـ}- دار الفكر- بيروت- ١٤٠٥هـ.

١٣- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي {ت ٨٧٥هـ}- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت.

١٤- حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة، عبدالله بن أحمد بن محمد المقدسي أبو محمد{ت٦٢٠هـ}- مكتبة الرشد- الرياض- ١٤٠٩هـ-الطبعة الأولى- تح/عبدالله يوسف الجديع.

١٥- دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، سعيد حسن بحيري- مكتبة الآداب- القاهرة- ٢٠٠٥م.

١٦- دليل الناقد العربي، ميجان الرويلي، وسعد البازغي- المركز الثقافي العربي- ط٢- الدار البيضاء- ٢٠٠٢م.

١٧- زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي {ت ٥٩٧هـ}- المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٤هـ- ط٣.

١٨- صبح الأعشى في كتابة الإنشا، القلقشندي{ت ٨٢١هـ}- وزارة الثقافة- دمشق- ١٩٨١م- تح/عبد القادر زكار.

١٩- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري {تبعد٨٦٦ هـ}- دار الجيل- بيروت / لبنان- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م-الطبعة الثانية- تح/إ. لافي بروفنصال.

٢٠- علم الدلالة السماتيكية ، شاهر الحسن- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- مصر- ط١- ٢٠٠١م.

٢١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي{ت ٥٣٨هـ}- دار إحياء التراث العربي- بيروت- تح/عبدالرزاق المهدي.

٢٢- الكشف والبيان (تفسير الثعلبي). أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري {ت٤٢٧ هـ - ١٠٣٥م}- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان- ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م-الطبعة الأولى-تح/ الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي.

٢٣- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري{ت٧١١هـ}- دار صادر - بيروت-الطبعة الأولى.

٢٤- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي {ت٧٢١هـ}- مكتبة لبنان- بيروت- ١٩٩٥م-تح/ محمود خاطر.

٢٥- المخصص ،لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي {ت٤٥٨هـ}- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ١٤١٧هـ ١٩٩٦م-الطبعة الأولى- تح/ خليل إبراهم جفال.

٢٦- المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة – مكتبة الآداب- القاهرة – مصر- ط١- ٢٠٠٤م.

٢٧- مدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دلاش، ترجمة محمد يحياتن- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ١٩٨٦م- ص٣٣.

٢٨- معاني القرآن الكريم،النحاس{ت ٣٣٨هـ}- جامعة أم القرى- مكة المكرمة – ١٤٠٩هـ- الطبعة الأولى- تح/ محمد علي الصابوني.

٢٩- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: سعيد علوش- مركز الإنماء القومي- بيروت.

٣٠- منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني {ت ٧٢٨هـ}- مؤسسة قرطبة- ١٤٠٦هـ-ط١- تح/د. محمد رشاد سالم.

٣١- نظم الدررفي تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي{ت ٨٥٥هـ}- دار الكتب العلمية- بيروت – ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م- تح/عبدالرزاق غالب المهدي.

٣٢- النكت والعيون (تفسير الماوردي)، أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري{ت ٤٥٠هـ}-دارالكتب العلمية- بيروت- لبنان-تح/السيد ابن عبدالمقصود بن عبدالرحيم.